الأندلس المفقود في الجزائر: الخلفية التاريخية للإرث الثقافي ومسميات المناطق الجزائرية نموذجا

The lost Andalusia in Algeria: the historical background of the cultural heritage and the names of the Algerian regions as a model

حنان مصطفى[1]

[1]مخبر الدراسات الأدبية واللغوية الاندلسية، جامعة تلمسان، الجزائر

hanane.mostefa@univ-tlemcen.dz

تاريخ الاستلام: 2022/04/26 تاريخ القبول: 2022/12/20 تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص

فارين من محاكم التفتيش، من القمع والتعذيب متجهين نحو المجهول، إلى بلدان غريبة وغريبون عنها، هاجروا تاركين قلوبهم وراءهم، تمركزوا في عدة مناطق من بينها الجزائر حيث تعايشوا مع الأتراك والكراغلة والسكان الأصليين، ليتشبع هؤلاء بكل ما هو أندلسي المنشأ، من ثقافة في الملبس والمأكل، وحتى فن التعامل، فقد سمتهم الأوساط التي عاشوا فيها بالحضر، لتحضرهم وعصرنة أساليبهم في شتى المجالات.

الأندلس المفقود أو كما سميت في روائع الكتاب الفردوس المفقود، تجلى في كل بقعة وطأتها أقدام هؤلاء المهاجرين، ظهرت في تسمية المناطق، والأكلات الشعبية، وحتى الموسيقى وشعر الحنين فبعد أن فقدوا ما فقدوا كان عزاءهم الوحيد نقل

Abstract

Fleeing from the Inquisition, repression and torture, to foreign territories, they emigrated leaving their hearts behind, settling in different areas, including Algeria, where they lived with the Turks and the natives, who benefited from everything Andalusian origin, clothes, food and even in the art of treating others, the areas in which they lived called them urban for their modern procedures in multiple fields.

Lost Andalusia, the Lost Paradise, appeared in every corner that these immigrants set foot, in the names of the regions, in the famous foods, and even in the song and poetry of nostalgia. Having lost what they had lost, their only consolation was the transfer of their heritage to their new lands, which could perhaps take away some of their

مصطفى حنان:hananemos351@gmail.com

تراثهم لمواطنهم الجديدة، علها تخفف عنهم بعض الحنين وتخمد لوعة الفراق. فكيف تشابهت أسماء لمناطق اسبانية ومناطق جزائرية؟ هل هي محض صدفة! وكيف أثرت ثقافة الأندلس ثقافة بلدنا الجزائر؟ كل هذا وأكثر سنجيب عليه من خلال مقالنا هذا محاولين ابراز التنوع الثقافي الذي نشأ من خلال الاحتكاك بين الشعبين.

كلمات مفتاحية: فردوس مفقود؛ ثقافة اسبانية جزائرية؛ تاريخ مسلمين؛ محاكم تفتيش؛ طوبونوميا.

nostalgia and quell the agony of separation. So, how similar are the names of the Spanish zones and the Algerian zones? Is it just a coincidence! and,how did the culture of Andalusia influence the culture of our country, Algeria? We will answer all of the above and more in this article in an attempt to highlight the cultural diversity created by the friction between the two peoples.

Keywords: The Lost Paradise; Spanish-Algerian culture, the history of Muslims; inquisition; Toponomy.

1.مقدمة

الأندلس الأعظم مجد اسبانيا العربية لعقود من الزمن، الذي كان للمسلمين كل الفضل في بناء الهوية التاريخية والجغرافية للأراضي الايبيرية، إن نحن ذكرنا المجد فلابد أنه يوازي كل من القوة، المركز، وعلو الشأن، مجد كان يوم أن اتحد العرب وكانتفوا الجهود للإبقاء على ملكهم، ملك تفكك بمجرد أن أصبح الحكام العرب متنازعين على السلطة، الشيء الذي أدى إلى عدة نزاعات داخلية وحروب، ليتخللها بهذا التغالب والتكالب الصليبي، الذي لم يفوت الفرصة لاسترجاع واسترداد أراضيه. شيئا فشيئا، بدأت هزائم المسلمين تمتد وخسائرهم تشتد، إلى أن سقطت آخر معاقل المسلمين في الأندلس بسقوط غرناطة الحمراء سنة 1492، لتبدأ من هنا قصة أخرى، قصة ألم وسقوط علم، لو خطها معاصروها لخطوها بدمائهم لا بأقلامهم.

جارين ذيول الخيبة والهزيمة، فارين من عدو ظالم، غاشم، أوهمهم لوهلة الابقاء على دينهم، حريتهم، وملكيتهم، لكن هيهات.. فبمجرد تسليم أبو عبد الله الصغير لمفاتيح قصر غرناطة الحمراء رد المسيحيون الصاع صاعين، بدأوا أولا بالتشديد على الحريات الدينية، ثم بعدها محاولة التنصير، لكن هذا لم يكفي، ليلجؤوا بعدها إلى منع الإسلام من خلال إغلاق دور الدين والمساجد، تغيير أسماء عربية الى أسماء اسبانية، وحرق كتب الدين، واعتقال العلماء والقائمة طويلة وتطول. وهل كفاهم هذا؟ بالطبع لا، فطموحهم الأسمى كان تطهير العرق الاسباني، أي طرد العرب كليا، وهذا ما حصل بعد اصدار مرسوم الطرد الكبير، حيث تشتت المورسكيون في الأقطار، تاركين فردوسهم وراءهم، متجهين إلى عدة مناطق منها تونس، المغرب والجزائر، التي كانت لها حصة الأسد، الحصة الأكبر من اللاجئين، للقرب الجغرافي

وللاحتلال الاسباني في تلك الفترة، والتي احتضنت تقريبا كل مدنها أعدادا هائلة من المور الذين هُجّروا وهاجروا على أمل أنهم سيكونون بين إخوانهم، إخوانهم! هل حقا كنا إخوانا؟ هذا ما لن نستطيع الجزم به، فما تعرضوا له في ديار الاسلام والمسلمين لم يكن بالشيء الهين باعتبارهم عناصر دخيلة، غريبة، ومختلفة.

العنصر الغريب الذي لم يرغب به أحد كان رمزا للحضارة والتحضر، كان من أوصل الجزائر إبّان الايالة العثمانية إلى موضعها الزاهر في كل المجالات المهمة، بفضل إلمامهم بكل التقنيات الحديثة، ولشيء آخر، وهو محاوله تجسيد أندلسهم الضائع في مواطن اضطروا للعيش والتّعايش معها. تجلى ذلك التجسيد في الفن العمراني، الزراعي والاجتماعي، فالحنين والتغرب عن وطنهم هو ما جعلهم ينقلون أندلسهم الى جزائرنا.

وبالحديث عن النقل وخاصة قضية أسماء الأماكن، المصادر العربية في هذا الشأن شحيحة جدا، فلا طالما اتخذ العرب قضية الموريسكيين على أنها مأساة، وهي بالفعل كذلك، لذلك تعاطوا معها بالعاطفة والتأنيب، ولم يخوضوا كثيرا في التاريخ ولم يلموا به، خصوصا على صعيد المناطق التي استقروا فيها وحملت اسمهم أو شيئا منهم، على عكس الغربيين، الذين درسوا تاريخهم من خلال مراجعة مخطوطات وأرشيفات محاكم التفتيش، واعتبروها قضية مسيحية قبل أن تكون إسلامية.

على ضوء ما تم ذكره آنفا، من خلال مقالنا هذا سنحاول الإجابة على الاشكالية التالية: ما ماهية الخلفية التاريخية لتشابه أسماء بعض الأماكن الاسبانية بالجزائرية؟ سنلقي من خلالها نظرة شاملة على تاريخ الأندلسيين بالجزائر وأهم إسهاماتهم الاقتصادية والاجتماعية، أين تموقعوا وكيف استقروا؟ لنصل أخيرا للإجابة على قضية نقل فردوسهم الضائع إلى فردوسنا أي جزائرنا.

متبعين المنهج التاريخي الوصفي، متقفين أثر الحقائق التاريخية بطريقة استقصائية، ومعتمدين على وصف ما حدث بين ماض الموريسكيين في أندلسهم وحاضرهم في جزائرهم، حاولنا إنجاز مقالنا هذا بالاعتماد على بيانات ووثائق أجنبية، إسبانية بالأخص، أكثر منها عربية، نظرا لشح المصادر، بغية معرفة حقيقة ظاهرة تجسيد مكان في مكان وما لها من ارتباطات تاريخية.

2.التاريخ والموروث الموريسكي بالجزائر

1.2 الهجرة الموريسكية نحو الجزائر

كلنا نعلم أن هجرة الموريسكيين بدأت مع سقوط الأندلس، نظير التعذيب والقمع الذي تعرض له هذا الشعب، هذا بالإشارة إلى أن الموريسكيين هم المهاجرون بعد السقوط، لكن ماذا عن الأندلسيين؟ متى بدأت هجرتهم نحو الأراضي الجزائرية؟

لا يخفى على الجميع أن الحكم الأندلسي تعاقبت عليه عدة امارات وخلافات عربية شكلت علاقات حرب وسلام مع الدول الأخرى فحسب بعض المراجع الأندلسية، الهجرات الأندلسية إلى الجزائر بدأت مع دخول المرابطين إلى الأندلس سنة 1085 بعد انتصارهم في معركه الزلاقة، هاجر الكثير من أمرائهم بأموالهم وأهلهم وخدمهم إلى إمارة الحماديين ببجاية سنة 1091، حيث أكرمت منزلهم الامارة الحمادية، وجعلت من دلس منزلا لهم، و التي صارت فيما بعد قبلة للوفود الأندلسية التي أثرت هذه المنطقة بكل ما هو أندلسي الطبع، من متنزهات، وحدائق، وتشييد وفقا للذوق الاندلسي، وبهذا فقد مهد هؤلاء المهاجرون الموطن للوافدين الجدد، وهم ملوك الدولة العامرية الفارين من المرابطين ،والذين اتخذوا أيضا من بجاية مرتعا لهم، وذلك لتشبعها بكل ما هو أندلسي، الشيء الذي سهل عليهم الحياة فيها، ومكنهم من التأقلم مع موطنهم الجديد. (Al-muamnyn، 2007، صفحة 65)

هذه المرحلة هو ما تم التعارف عليه باسم الهجرة الصغرى حيث كانت الوفود تغادر موطنها الأم الأندلس لكن بكميات معتبرة، لتليها فيما بعد الهجرة الكبرى، وهي تلك التي كانت بعد سقوط غرناطة، والتي سُمّي فيها الأندلسيين بالموريسكيين، فبعد نهاية الحكم الاسلامي بالأندلس وسقوط آخر معاقل المسلمين بغرناطة سنة 1492 ،انتهج الملوك الكاثوليك الاسبان سياسة التطهير، أي تصفية الوجود الاسلامي بإسبانيا، وذلك من خلال محاولة تنصيرهم ومنعهم من تأدية شعائرهم، وحرق كتبهم الاسلامية، ودور الدين والمساجد، وطمس كل ما يمد ويمتُّ بصلة إلى الإسلام. وقد تبنى هذه السياسة الملكان فرناندو وزوجته إيزابيل والكاردينال خيمينيس أكبر عدو للإسلام و المسلمين بالأندلس، وهذا ما سمي فيما بعد بمحاكم التفتيش، حيث صار المسلمون تحت المجهر، أي تحت الرقابة المستمرة، فكل من يتطهر مسلم، وكل من يستحم يوم الجمعة مسلم، الشيء الذي حتم على مسلمي الأندلس التكتم واخفاء دينهم علنا وممارساته سرا، لئلا يسلموا من شر الكنيسة الكاثوليكية، لكن هيهات، فهذه كانت البداية فقط، فطموح فرناندو و إيزابيل لم يكن فقط التنصير وإنما التطهير، أي تنقية العرق الاسباني، وهو الشيء الذي لن يحدث إلا بطرد المسلمين من الأندلس. ومن هنا بدأت معاناة مسلمي الأندلس، فبعد حرمهم من مزاولة نشاطاتهم وشعائرهم باعتبار أن الاسلام خطر على اسبانيا وجب ردعه، جاء قرار التهجير الجماعي نحو السواحل الغربية بقرار من فيليب الثالث (1607-1614)، فخُصّصت لهم سفن نقلتهم نحو وهران والمرسى الكبير، اللذين كانا آنذاك تحت الحكم الاسباني، ليستقر الوفد الجديد في كل من وهران، أرزيو، مستغانم، تلمسان، ندرومة، وشرقا ببجاية، جيجل، القل، قسنطينة، عنابة، والقالة، بالإضافة إلى مناطق أخرى مثل شرشال، البليدة، القليعة، تادلس، مليانة، المدية، مازونة، وإقليم متيجة. وقد نتج عن هذا الوضع تحالف ضد النفوذ الإسباني بين الوافدين الجدد والعثمانيين الذين كانوا يحكمون الجزائر في تلك الفترة، فالرغبة الجامحة للأندلسيين في

الانتقام جعلت من بعضهم قراصنة بحرية ضد الأساطيل الإسبانية. (Braudel، 1949، الصفحات 55-59)

وفقا لبعض المؤرخين في الثاني من أكتوبر سنة 1609، حملت السفن النّابولية التي عددها 17 سفينة 200 موريسكي على متن كل واحدة منها، بحيث ارتفع الرقم النهائي إلى حوالي 6000 موريسكي، نزل أول المطرودين في وهران، بعد ذلك تفاوض الكونت أجيلار على استقبالهم في تلمسان بفضل الحماية التي قدمها لهم المنصور. (Epalza، 1976، صفحة 53)

توالت عمليات التهجير والإنزال بالمرسى الكبير، حيث في 16 ساعة فقط دخل حوالي 6000 موريسكي إلى وهران عبر ميناء قرطاجنة، الشيء الذي استدعى لويس فجاردو بالأمر بعدم رسو المزيد من السفن في وهران، لأن المدينة لم يعد بمقدورها استيعاب الكم الهائل من المهاجرين. وفي هذا الصدد المؤرخ ايبلازا علق قائلا، أنه تم القائهم داخل الأراضي الجزائرية، بحيث لا شساعة المرسى الكبير وحصونه استوعبتهم، ولا مدينة وهران عادت قادرة على إيوائهم أو إطعامهم. (Haedo، 1870، صفحة 18)

من المهم الإشارة إلى أن ولاة وهران والمرسى الكبير لم يتم اخطارهم بوصول عدة شحنات من المهاجرين، تجنبا لأي مشاكل قد تعيق إعلان مرسوم الطرد الكبير، كما يجب أن نُنوّه إلى أنه تم الالقاء بهؤلاء المهاجرين في الضواحي دون السماح لهم بالتمركز في المدن، وهو الأمر الذي استنكره الشعب المضيف باعتبارهم خطرا حقيقيا، بسبب عددهم المهيل، فاستقرارهم في الضواحي حيث يعيش المزارعون في توازن صعب بالنسبة للقمة عيشهم سيصعب ويعقد الأمر أكثر بوصول الوافدين الجدد، الأمر الذي دفع بأصحاب الأرض إلى الدفاع عن أنفسهم ضد هؤلاء الأجانب، الذين لا يعرفونهم والذين لا يشاركونهم لا مظهرهم، لغتهم أو عاداتهم، وفي هذا الصدد يقول برنابي، لقد طردوا من وهران وتُركوا لمصيرهم، فقد تعرضوا للنهب والسرقة والاعتداء كما سجلت بعض الوفيات، فمثلا في أرزيو كان على السلطات طرد الشعب بالمدافع لاستكمال عمليات الإنزال، فلكم ولنا أن نتصور ما عاناه هؤلاء الأجانب بمجرد نزولهم إلى أوطان خالية من الصُحب والخلان، إلى أوطان غريبة وغريبون عنها، مطرودين، مشردين ومنبوذين من كل جهة، هذا هو المصير المحتوم! (Liauzu، 1996، الصفحات 13-20)

في البداية لم تُبد السلطات الاسبانية أهمية للنهب الذي تعرضوا له، لكن لاحقا ندّدت بكل ما قاساه هؤلاء المهاجرون من تعسف برّا،وكإجراء آخر، قررت تغيير مقر الإنزال إلى تلمسان، وهو ما قُدر بحوالي 22 ألف موريسكي، فيما يخص العاصمة فقد استقبلت الوافدين من غرناطة، فالنسيا، أراغونوكتالونيا. رافيار في هذا الصدد علق قائلا، أنه في الحقيقة كان حي الثغريين في الجزائر العاصمة نموذجا للمور الوافدين من التاج الأراجوني. (Ravillard، 1979، صفحة 37)

ومع هذا لم تكن العاصمة كغيرها من السواحل الغربية الملجأ الوحيد للمور، فمنذ القرن السابع عشر استقبلت موانئ بجاية، جيجل وبونة كما هائلا من الموريسكيين، وفقا لبعض المؤرخين الفرنسيين سنة1151 دلس بمفردها احتوت على 1000 موريسكي، على الرغم من عدم وجود وثائق كافية للخوض في هذه القضية. (Haedo، 1870، صفحة 19)

دخل أهل فالنسيا ومورسيا الجزائر بكل ثقلهم الثقافي الاسباني، ومن المعروف بالفعل أنهم مهجنون ثقافيا وايديولوجيا، الشيء الذي أرهب نوعا ما السلطات بالجزائر، حيث لم يسمح لهم مثلا بشراء وامتلاك الأسلحة إلا بعد تأكيد ولائهم للصفوف العثمانية، والتي جرتهم فيما بعد إلى صفوف الجيش، مستخدمة اياهم كأداة انتقام في وجه الحملات الصليبية، ومع ذلك فضل الكثير منهم العودة إلى وهران على الرغم من حقيقة أنهم سيصبحون عبيدا هناك. (Epalza، 1949، صفحة 66)

تبعا لذلك، يمكن الافتراض أن أولئك الذين أرادوا العودة إلى وهران كانوا من المسيحيين المخلصين من غرناطة، لأنه هناك أكثر من 6000 مسيحي غرناطي بالعاصمة، على غرار مور أراغون وفالنسيا، الذين سعوا إلى استعادة موقعهم العربي الاسلامي على جميع المستويات، بحيث احتاج المور الذين وصلوا إلى البربرية إلى أن يكونوا مسلمين علانية، وأن يتزوجوا وفقا للتشريع القرآني، فمثلا وافدو العاصمة، مستغانم، و بجاية، حضروا الاحتفالات الاسلامية في المساجد، وتجادلوا مع المسيحيين حول الدين، وارتدوا ملابس المسلمين، وتحدثوا العربية، وهو الشيء الذي افتقدوه في أراضيهم في فالينسيا. (Epalza، 1976، صفحة 44)

2.2. الاسهامات الثقافية للمورسكيين بالجزائر

الوافدون الجدد والذين اضطروا للعيش أو بالأحرى التّعايش مع أفراد المجتمع الجزائري، الذي لم يتقبلهم في بداية الأمر، جلبوا معهم مهدا ثقافيا هجينا، أندلسيا اسبانيا، أضفى على الجزائر لمسة براقة في كل المجالات. على سبيل المثال زراعيا، أدخل القادمون الجدد من فالنسيا تقنيات ري زراعية جديدة، في وادي متيجة تمكنوا من تنمية ثروة زراعية كبيرة، بفضل أساليبهم الحديثة، حيث انتشرت زراعة الأرز الكروم، وكروم العنب والذرة وأشجار الفاكهة والزيتون، والتي خلقت شبكات تجارية تنتهي بتزويد المدن الرئيسية المجاورة، وفقا للمؤرخ صلاح عباد فإن زراعة القصب وإنتاجه كان بشكل خاص في سهل متّيجة، بالإضافة إلى محصول القمح بكل أصنافه المختلطة، الذي قاموا بزراعته بين الأشجار المثمرة. (Epalza، 1976، الصفحات 22-26)

كانت معرفة المور بهذا المجال واسعة النطاق، فقد عرفوا كيفية تكييف أصناف القمح مع أي نوع من الحقول المتخصصة. ومنه يمكن القول أن بداية الزراعة الغذائية وزراعة الأشجار بدأت مع الأندلسيين، وفي هذا السياق يكشف وصف المؤرخ شو عن ثراء الجزائر العاصمة وضواحيها التي كانت وديانها وأنهارها

محاطة بمنازل ريفية مطلية بالجير، وحدائق تتخللها أشجار الفاكهة، ما يعطي منظرا خلابا يمكن رؤيته من خلال البحر، حيث يقضي أغلب السكان موسم الاصطياف. (Braudel، 1949، صفحة 22)

كما تعكس مدينة البليدة الواقع الأندلسي بامتياز، حيث يتم تعريفها عادة على أنها مدينة التقاليد الموريسكية بامتياز من الناحية الزراعية والمعمارية، حيث كانت الحدائق تسحر الناظر إليها لوفرة الفاكهة الملونة والأشجار البرية، كما جلب المورسكيون معهم فن زراعة بساتين البرتقال، واستغلوا امكانياتهم الزراعية لإعمار المناطق القاحلة. (Haedo، 1870، صفحة 34)

يلخص مؤرخ الاقتصاد الحديث العيدوني أهمية القضية الموريسكية في الزراعة الجزائرية، فحسب تحليلاته، بفضل نشاطهم الاقتصادي والتجاري، العديد من المدن ولدت من جديد من أنقاضها، مثل شرشال، البليدة، والقليعة التي اشتهرت بإنتاج الحرير الطبيعي. كما استطاع المور منذ وصولهم إلى الجزائر أن يجمعوا ثروة مالية طائلة بفضل نشاطاتهم المختلفة، والتي ساعدت في تنمية وازدهار الاقتصاد الجزائري. (الدين، 1984، صفحة 13)

في الكثير من الحالات تشابه نشاط المورسكيّين بالجزائر بنشاط ممالك الطوائف، وهي النخبة البرجوازية التي احتكرت النشاط الاقتصادي، لأنها كانت تمثل في ذلك المجتمع المؤشر المالي للرأسمالية الجديدة للجزائر العثمانية الحديثة. على سبيل المثال في صناعة النسيج نشأت عائلة بوناطيرو، وتخصصت في صناعة الصوف والحرير، كما انتشرت في شرشال صناعة الصلب، والفخار، والمنازل المغطاة بالبلاط، والنوافير، وحزام من بساتين الزيتون، والنباتات العطرية في كل من تلمسان ،والبليدة التي تميزت بالفن المعماري الاسلامي، والذي اتفق السياح الاسبان والفرنسيون في ثلاث نقاط بشأنها وهي، جمال مناظرها وأريافها وثراء انتاجها الزراعي، وتنوع تجارتها، حيث وصفها إيبلازا على أنها من أكثر المدن غنى بالجزائر، فمثلا كل خميس يقام سوق عام حيث يجلب التجار الدجاج، البيض، والفواكه المجففة ،والقمح، والخضروات من كل مكان. (Handal، 2004، صفحة 20)

وهكذا تمكن المور من تنمية الاقتصاد الجزائري على جميع الأصعدة. كما أن ممارستهم التجارة سمحت لهم بامتلاك المنازل وشراء المزارع، ونلاحظ ذلك من خلال تصريحات العيدوني التي أكدت على أن التجار كانوا أكثر العناصر قربا وتحالفا مع السلطة الحاكمة لجودة منتوجاتهم، وعصرنة أساليبهم. (الدين، 1984، صفحة 23)

بدوره أكد المؤرخ برادول أنه في القرن السابع عشر الحياة الجزائرية كانت مبنية على نجاح نشاط المور، فكل المباني التي تم تشييدها والمساجد والشوارع، كلها من عمل هؤلاء اللاجئين، فمثلا في مدينة

تلمسان كان الأندلسيون يصنعون مسامير على شكل صليب ويعلقونها على أبوابهم، وهو ما نجده إلى يومنا هذا في سيدي بومدين بتلمسان. (Braudel، 1949، صفحة 18)

وعلاوة على ذلك لم يكونوا مزارعين جيدين فحسب، بل كانوا أيضا من ذوي الخبرة في بناء محطات المياه، فقد انتشلوا كلا من شرشال، دلس، وتنس من الفوضى التي كانت تعم فيها، ووفروا المياه للجزائر التي لم يكن بها سابقا سوى الآبار والصهاريج، فقد كان عامل بناء أندلسي يدعى موسى أوستا مسؤولا عن جلب المياه إلى العاصمة من المصدر الساحلي الحامة، تقع هذه الأخيرة على بعد أربعة كيلو متر ونصف من العاصمة، تم بناء هذه القناة في زمن مصطفى كوسا باشا (16101-1613). مساهمات موسى أوستا أسطورية، وقد ورد ذكرها في القرن الثامن عشر على لسان العديد من المؤرخين، هذا دون أن ننسى الأنشطة المهنية الأخرى واليدوية مثل الحدادة، النجارة، الخياطة، السيراميك، وصناعة الجلود والحرير، فقد تميزت مصانع النسيج المعروفة في كل من الجزائر، شرشال، القليعة بجودة منتجاتها. أكد المؤرخ دييغو هيدو على أن هذا الانتاج غطى المدن الرئيسية واحتياجاتها وتم تصدير جزء منه إلى دول الجوار مثل تونس. (Handal، 2004، صفحة 54)

في القرن السابع عشر وجدنا المنسوجات والتطريز وصناعة السجاد من بين أهم المهن التي مارسها المور بالجزائر. وفقا للتاريخ كان قطاع النسيج في ذلك الوقت يضم أكثر من 3000 مصنع، كما اشتهرت المناطق الغربية بصناعة البساط الأندلسي خاصة في هُنين بتلمسان، حيث كرست عائلة بوناطيرو الشهيرة جهدها ووقتها لتصنيع القُلنسوات والشّاشيات، في حين تخصصت عائلات أخرى في صناعة المُخمل، وسيطرت على مصانع السرج، الأحذية، والحدادة في كل من شرشال، البليدة، تلمسان وقسنطينة، هاتين الأخيرتين عُرفتا بصنع السجاد ذو الطراز الأندلسي الرفيع. حريّ بنا التذكير أنه بعد تم فحص سجلات المحكمة، وُجدت أسماء الأشخاص مقرونة بالحرف التي امتهنوها، على سبيل المثال، نجد الصباغ ابن محمد الأندلسي، الحداد محمد الأندلسي، وصانع الشاشيات علي بن حسن، والخياط يحي. (Tayeb، 2009، الصفحات 34-51)

هذا ودون أن ننسى التراث المعماري الأندلسي، الذي تمثل في زخرفة المساجد، وبيوت القصبة، والحمامات، والأحياء، والأفران التي بناها المغاربة في مختلف مدن الجزائر. هذا وقد ظهر الجيل الأول من المعماريين الأندلسيين طوال القرن السابع عشر، وذلك بفضل مساهمتهم النشطة في أهم المشاريع الحظرية، ويمكننا توزيعهم على ثلاثة أنواع، في المقام الأول، هندسة المنازل، التي تميزت بوجود شُرف بمقاعد وفناء مفتوح من أرضية رخامية، السلالم عادة ما تكون عند مدخل الفناء، على جانب الشارع توجد نافذة بقضبان تفتح فقط في مهرجانات معينه. في المقام الثاني، هندسة الشوارع التي تحتوي على أبواب كبيرة وأرصفة رخامية، وأفنية محاطة بجدران كبيرة، تتوسطها نافورة وشوارع ضيقة، وهو الشيء المشابه لشوارع الأندلس

والبرتغال. أخيرا، هندسة الحدائق التي أولاها المور عناية خاصة، فكانت العنصر الأول والأهم في التكوين المعماري الحضاري، وتواجدت بشكل عام خارج محيط المنازل أو على حافة الجداول والأنهار. (Pons، 2009، الصفحات 33-40)

تجدر الاشارة أيضا إلى تراث الطهي المغربي، حيث لا تزال العديد من الأطباق وطرق التحضير حاضرة إلى يومنا هذا، ومن بينها الحريرة، وهي شربة تقليدية محضرة بمكونات متنوعة كاللحم والتوابل، بالإضافة إلى الكعك، وهو ما اشتهرت به مدينة تلمسان ولا تزال. بالإضافة إلى عادات أخرى مثلا تقديم الهدايا إلى العروسين وهو ما تم تداوله باسم التاوسة. (Ravillard، 1979، صفحة 26)

في الوقت الحالي عند الحديث عن الموسيقى، عادة ما يتبادر إلى الذهن هو المالوف والحوزي، فقد تغنوا بأغاني الحنين إلى الوطن، ذلك الشعور بالهزيمة والتغرب والهوان، جرّاء ما تعرضوا له في البداية من سرقة واعتداءات وطرد، أشهر أغنية هي طريق اشبيلية، أغنية قصيرة وصفت المعاناة التي مر بها مسلمي الأندلس للوصول إلى المغرب والجزائر، قيل في احدى شظاياها "الطريق إلى اشبيلية طويل جدا، لم يقتلوني ولم يتركوني أعيش" (Handal، 2004، صفحة 09)

من الضروري أن نذكر أن الموريسكيين قد برعوا في الطب أيضا، حيث تم استدعاء الأطباء والجراحين الأندلسيين ليس فقط لمعالجة المرضى المسلمين ولكن حتى المسيحيين منهم، فعلى سبيل المثال استدعى فيليب الثاني طبيبا موريسكيا لعلاج ابنه فيليب الثالث، وهو نفس الشخص الذي أصدر مرسوم الطرد. (Handal، 2004، صفحة 12)

من شأن كل هذه الأنشطة أن تستحضر الارث المادي وغير المادي أي المعنوي بالجزائر، فبفضل هذا الوجود لم يزدهر التراث فقط بل حافظ أيضا على ذاكرة تاريخية مشتركة بين الشعبين إلى يومنا هذا.

3.الرباط الطوبونومي الأندلسي الجزائري

1.3 .ماهية النقل والطوبونوميا

قبل أن نشرع في ذكر قضية تشابه المسميات الجزائرية-الاسبانية، لابد أن نتعرف بادئ ذي بدئ على ماهية ظاهرة النقل والطوبونوميا. النقل أو ما يسمى بتجسيد الوطن الأم في الوطن المرتع، والتي لها تاريخ أزلي، بدأ أولا مع المهاجرين الأوروبيين، فاستحالة العيش في الوطن الأم والانسلاخ عنه، تعود إلى أسباب عدة، كالفساد، الحروب، المجاعة، أو التهجير وهو مربط الفرس في مقالنا هذا، فلو عاش هؤلاء المهاجرون حياة طبيعية لما احتاجوا إلى أن يُقولبُوا معاناتهم ويسطّروها، فحيث لا توجد معاناة لا توجد قصة، وان لم ل تكن هناك معاناة لا داعي لكتابة قصة!

فتشظّي المهاجرين بين وطنهم الأصلي وأوطانهم الجديدة واستقرارهم بها، حيث فاض بهم الحنين وجيش مشاعرهم الفراق، الشيء الذي أفضى بهم إلى نقلهم ثقافتهم، حضارتهم، لغتهم، أسماء أوطانهم إلى ملاجئهم الجديدة، تجسد ذلك في نقل أسماء مناطق عاشوا فيها، وأخرى أحبوها أو عملوا بها، وأخرى كانت رمزا لثقافتهم، كمعالم تاريخية، من واحات وقصور وحامّات، وحتى أسماء الوديان، والأنهار، والجبال، وأحيانا أخرى أطلقوا على بعض المناطق بالاسم العائلي ربما لأوائل السكان الذين عاشوا بها، أو لشهرتهم في مجال من المجالات الحرفية أو العلمية. عملية النقل هاته بمثابة عملية توأمة للمناطق الاسبانية بالمناطق الجزائرية، كل ذلك للتغلب على شعور الوحشة والغربة، وربما لاستطاعة التأقلم والتعايش مجددا.(Molina، 2014، صفحة 10)

وأما الطوبونوميا، فالمصطلح أولا يعود إلى اليونانية، وتحديدًا من كلمة topos، مما يعني المكان، ومن onoma، مما يعني الاسم، وبالتالي التخصص الذي يدرس تسمية المناطق هو التخصص الذي يدرس تسمية المناطق. كما يعرف أيضا بعلم التسميات الجغرافية، وهو أحد فروع علم التسميات اللغوية، الذي يتكون من التسجيل والفهرسة والدراسة الاشتقاقية للأسماء الصحيحة للمكان. بالإضافة إلى علم التسميات، تستخدم العلوم الأخرى مفهوم الأسماء الجغرافية مع معانٍ محددة: في علم التشريح، يُستخدم مصطلح الأسماء الجغرافية للإشارة إلى اسم منطقة من الجسم، بقدر اختلافها عن اسم العضو، في علم الأحياء مصطلح الأسماء الجغرافية مرادف للاسم البيولوجي، في علم الأعراق، يشير مصطلح الأسماء الجغرافية إلى اسم مشتق من مكان أو منطقة.(Navarro، 2016)

ترجع أصول أسماء المواقع الجغرافية في بعض الأحيان إلى الألقاب أو الأسماء الصحيحة للأشخاص، ولكن عادةً ما يرجع أصلها إلى بعض الجوانب المادية للمكان الذي تحدده. على سبيل المثال، تعني كلمة Ocotlán "مكان تواجد أشجار الصنوبر" ولكن تم تفسيرها أيضًا على أنها "مكان لأشجار الصنوبر أو الأوتار"، في حين أن Purroy، الذي يرجع أصله إلى اللاتينية تعني "المكان المرتفع المحمر"، وأطلق بهعلى المدينة الواقعة على التل والتي تتمتع أراضيها وصخورها باللون الأحمر.(Navarro، 2016)

2.3 تشابه مسميات المناطق الجزائرية والأندلسية

من خلال ما تم ذكره آنفا، وبعد أن عرفنا حقيقة الهجرة الأندلسية إلى الجزائر، والتي لم تبدا فقط مع سقوط غرناطة بل قبل ذلك بكثير، منذ بداية حروب الاسترداد ونزاع حكام العرب، وهذا ما أشار إليه أيضا فوزي سعد الله في كتابه الشتات الأندلسي في الجزائر والعالم، وبعد أن تعرفنا على جميع المناطق التي حلُّوا بها في مختلف ربوع الوطن، وكل اسهاماتهم الثقافية، الاجتماعية ،التجارية ،وحتى الفنية منها، والتي تجلت في شعر الحنين، الحنين الى ذلك الفردوس المفقود الضائع، الذي تغربوا وغُرّبوا عنه بقمع ووحشية كبيرين، ليرحلوا إلى مواطن أخرى، وكلّهم أمل في عيش كريم ينسيهم مرارة الفراق، ليُستقبلوا بالرفض، القمع،

والعنصرية، من قبل شعب ربما لن نلومه على ما مضى ،فالكمّ الهائل للأندلسيين المطرودين المُنزلين بالجزائر، كان كبيرا لدرجة أنهم شكلوا خطرا على الشعب المُضيف من حيث مزاحمتهم على لقمة عيشهم، ليحصل العكس ويصبح هذا العنصر المكروه، المنبوذ مصدر رزق لنفسه وللآخرين. (Liauzu، 1996، صفحة 15)

ذاك الحنين إلى الأندلس، أندلسهم الضائعة، فردوسهم المفقودة، تجلى في كل موطن وطأته أقدام الأندلسيين، ملاذات حاولوا الجعل منها أندلسهم الجديدة، علّها تغنيهم عن فردوسهم، أو تخفف ولو والقليل من لوعة فراقهم، فوجدنا ذلك ظاهرا في عادات وتقاليد المدن الجزائرية إلى يومنا هذا، وحتى في أسماء العائلات وأسماء المدن والأماكن، والذي نتج عن اندماج الشعبين ولم يكن محض صدفة. (Haedo، 1870، صفحة 66)

لا يمكن أن نمر مرور الكرام على مسألة تشابه أسماء المناطق والأماكن الجزائرية والمناطق الاسبانية ،التي احتضنت الأندلسيين لفترات طوال، ارتباطهم الشديد بمسقط رأسهم، حزّهم على نقل أسماء مدنهم، قراهم، جبالهم الأندلسية، واسقاطها على أوطانهم الجديدة، وهو الشيء الذي لم يكن يمتّ للغرابة بصلة، فهي ظاهرة انتشرت بين جميع المهاجرين في العالم، فعلى سبيل التشابه نجد بإسبانيا الوادي الكبير والوادي الكبير بجيجل الذي احتضن العائلات الموريسكية منذ عدة قرون، وحامة غرناطة التي كانت قلعة للناصريين، وحامة مورسيا، ووادي الحامة في إقليم ريوخا و حامة ألميريا، والتي تم تجسيدها في الجزائر فتجلت في حامة قسنطينة، وبويجة سيدي فرج بالعاصمة، وفي منطقة بلنسية نجد "لا ميسلاتا" وهو اسم لمحطة ميترو ،وفي نفس الوقت هو الاسم القديم لواحة المسيلة، التي احتضنت هي الأخرى الشتات الأندلسي. (Epalza، 1949، الصفحات 38-44)

في اسبانيا نجد أيضا منطقة جبلية معروفة بأشبوذان وهو نفس الاسم لعائلات أندلسية عاشت في أزفون، كما نجد مدينة القليعة الواقعة وسط الجزائر، والتي استقبلت أفواجا كبيرة من الأندلسيين الفارين، منطقة بلا اسم كانت، تطل على وادي زعفران، بعد أن أهلت بالمور أطلقوا عليها اسم القّليعة بضم القاف وسكون الياء، وهو اسم مصغر، فقد اعتاد الأندلسيون تصغير أشياءهم نطقا، فأصبحت هذه المدينة مهجرا بلنسيا وقشتاليا بامتياز، وذلك لبناء ولتشييد دورها وقصورها على الطريقة الأندلسية الاسبانية. (Braudel، 1949، صفحة 46)

مدينة البليدة أو مدينة السبعة أبواب، التي كان للأندلسيين الفضل الكبير في بناءها وتأسيسها، والتي لا يمكن أن تمر في أروقتها وأزقتها دون أن تستشعر الحضارة الأندلسية الموريسكية، والتي نسجوا حكاياتهم

في كل باب من أبوابها السبعة، الممزوجة بفن عمراني أندلسي عثماني بامتياز لازال حاضرا الى يومنا هذا. (Epalza، 1976، الصفحات 55-58)

وعلى ضوء استحضار التاريخ بالتأكيد لن ننسى مدينة تلمسان، التي كانت قاعدة خلفية للأندلسيين، والتي لم يتوقفوا عن الهرع والاختباء بها كلما سقطت حاضرة من حواضر الأندلس، وفي هذا الصدد لن يفوتنا ذكر قبيلة بني صميل، التي كانت متواجدة في الأندلس منذ الحقبة الأموية، قبل انتقالها إلى الغرب الجزائري في بلدة بني صميل التابعة لأولاد ميمون بتلمسان ،بالإضافة إلى قبيلة أولاد بني دحو أبو زرفة المتواجدة في سهل غريس بين تلمسان وتموشنت ،هذا ودون الخوض في مسألة الألقاب الجزائرية من أصل أندلسي لأن القائمة طويلة وسيطول الحديث عنها. (Bouzekri، 2012، الصفحات 11-25)

وباعتبار وهران والمرسى الكبير أحد أهم المدن التي احتضنت الأندلسيين بإعداد هائلة، سواء إبّان اصدار مرسوم الطرد أو خلال الهجرات الصغيرة السابقة، فالعديد من المصادر أشارت إلى أن الفضل في بناءها يعود إلى البحارين الأندلسيين، الذين رأوا في المرسى الكبير وِردا جغرافيا مهما ،فعلوا ذلك بانتفاضهم ضد البربر واستوطنوها ما يقارب سبعة أعوام ،وهذا وفقا لما ورد في كتاب الاستبصار، وربما لهذا السبب و الذي تلخص في العلاقات التاريخية، القرب الجغرافي، كانت وهران والمرسى الكبير الملاذ الأعظم للاجئين الأندلسيين، علما أن الموريسكيين الفارين بعد سقوط سرقسطة، الذين استقروا في أعالي الهضاب الجزائرية والتي أطلقوا عليها بالثغرة ،والتي لاتزال إلى يومنا هذا تُلقب بحي الثغريين، يعود لهم الفضل في إحياء المنطقة والقضاء على أحراش بوزريعة واستصلاح أراضيها الزراعية. (Al-muamnyn، 2007، صفحة 33)

4.خاتمة

على ضوء ما تم ذكره سابقا، واستنادا للمصادر التي تمت مراجعتها، آل بنا المآل الى الاستنتاج بأن الموريسكيين المطرودين الذين استقروا بالجزائر ومدنها شكلوا شريحة اجتماعية متماسكة، فكانت لهم حظوة ومكانة لدى الحكام والمسؤولين وحتى مع التجار، وذلك لحنكتهم وتفانيهم في العمل، ما جعلهم يتقلدون مناصب ادارية مهمة، ويحتكرون حرفا خاصة في السوق التجاري، حتى أنهم غطوا على العثمانيين الذين كانوا يشكلون الفئة الأكبر، فكان إرثهم المتوارث إلى يومنا هذا واسع النطاق، لا من ناحية الصناعة، التجارة، العمارة ،وحتى إثراء الحياة الفنية والفكرية، التي كان وِردها متشعّب الأنحاء، من موشحات وأزجال أندلسية وهي المعروفة حاليا بالمالوف، وإدخالهم لطبوع وآلات موسيقية جديدة كالعود، والرباب، والكمنجة، وإحياءهم قصائد المديح، الغزل، الرثاء، وشعر الحرب والحنين.

الهجرات الأندلسية بشقّيها الصّغرى والكبرى، أعطت الجزائر وكل مدنها طبعا وبُعدا أندلسيا تجلى أولا في الإرث المادي من عمران ومعالم أثرية لا زلنا نتحسّسُها إلى يومنا هذا، من خلال العادات والتقاليد،

وحتى أسماء المدن والأماكن، التي ربطوها بحياتهم الأندلسية السابقة، وأيضا من خلال الألقاب والأسماء العائلية التي لازالت متجذرة، راسخة ومترسخة في الجذر العائلي للشعب الجزائري.

شعب مضطهد، فار، مُهجّر، كان عزاءه الوحيد الذي قد يغنيه عن فراقه لتراب وطنه تجسيده وتصويره في وطن مُضيف آخر، نقل إليه ثقافته بثقلها، حضارته، أسماءه، ألقابه، وعاداته المُهجّنة، التي تجذرت في أعماق الجزائر العثمانية يوما ما، ليصبح بهذا فردوسهم الضائع جزائرهم الأندلسية الجديدة.

هذا الرباط غليظ الميثاق، الذي آلف بين قلبي الشعبين في زمن ما، بعد أن استضافت كل مدن الجزائر المور الفارين، المنبوذين، والمطرودين، وبعد أن حظوا بمكانة عظيمة بين الحكام لتفانيهم وإخلاصهم، هذا الشعب العظيم لم ينس الفضل ولم يتوانى عن مد يد العون للجزائر إبان الإيالة العثمانية في حروبها ضد الصليبين لمدة ثلاث قرون متتالية خلت، والتي كانت امتدادا حضاريا، اجتماعيا وديموغرافيا لها، والتي بدورها دعمتها وسهلت انخراطهم واندماجهم في الكيان الجزائري.

5. قائمة المراجع

- سعيدوني ناصر الدين، الجزائر في تاريخ العهد العثماني، (الجزائر، المكتبة الجزائرية للدراسات التاريخية، وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب1984)
- Bara Mohammed Tayeb, La cultura morisca y su importancia en el desarrollo de Argelia del siglo XVII. Altralang Jornal, 1,(2) ,2012
- Boris Handal, La Cultura Hispano Árabe en Latino América, Revista On-Line de la Universidad Bolivariana, 3,9,2004
- Bouzekri Nadia. derrotados, desterrados e internados españoles y catalanes en la Argelia colonial, ¿la memoria olvidada o el miedo a la memoria? (1936-1962) Departament d'Història Moderna i Contemporània, Universitat Autónoma de Barcelona, Barcelona,2012
- Braudel Fernand, La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, (Paris, Armand Colin,1949)
- Claude Liauzu, Histoire des Migrations Méditerranée Occidentale. (Paris, Complexe ,1996)
- Diego de Haedo, Topografía e historia general de Argel. La vida en Argel en el siglo XVI, (Argel: Grand Alger Livres,1870)
- Epalza, Mikel, Los moriscos antes y después de la expulsión, (Madrid, Mapfree,1994)
- Epalza Mikel, Études sur les morisques andalous en Tunisie. (Bordeaux, Bulletin Hispanique,1976)
- Luis Bernabé Pons, El exilio morisco. Las líneas maestras de una diáspora, Revista de Historia Moderna, 27,2002

- Molina. (28 de 10 de 2014). los moriscos, El licenciado Molina, morisco granadino expulsado a Argel en 1609, escribe su peripecia a un amigo cristiano en España:http://www.losmoriscos.es/historiasmoriscas/el-licenciado-mlina-morisco-granadino-expulsado-a-argel-en-1609-escribe-su-peripecia-a-un-amigo-cristiano-en-espana/
- The history of the conquest of Andalusia falls through the Al Maymun Ismail manuscript (the history of Andalusia),(Algeria, almaktabat al'andalusia,2007)
- Vincent Lagardère, Compagnes et paysans d'Al-Andalous au VIII et XVe siècles. (Paris, Maison Neuve et Larose,1993)